الغرب ومشاعر الريبة تجاه الإسلام

تأليف: كرامت خان
تعريب: حسين صافي

انحسرت آمال الغرب وتراجعت أحلامه في بسط نفوذه على العالم مع انتعاش الأماني ببزوغ مرحلة من البعث الأدبي والثقافي في الإسلام، ومن خلال نظرة فاحصة في الحقائق الموجودة على الأرض نتبيّن أن تنامي الشعور بالأصالة الإسلامية وتعاظمه هو السدّ الذي وقف حتى الآن بوجه السياسات الغربية؛ ولذلك، نرى الذين يتبنّون ما اصطلح عليها بنظرية عودة العنف الديني يؤكّدون على أنّها أصبحت عامل عدم استقرار في الغرب.

للوهلة الأولى، يبدو أنّ رواج العلمانية في الغرب قد سدّت جميع المنافذ أمام أي تداخل بين الدين والسياسة في حياتهم، ولكن التحوّلات التنموية التي أعقبت الحرب الكونية الثانية، تؤكّد لنا بما لا يقبل الشكّ وجود محرقات دينية على نطاق واسع.

إبان الحرب الباردة، وجدت الولايات المتحدة ضرورة لتحجيم العامل الديني لدى الشعوب الإسلامية، فقادت هجمة غربية ضدّ المدّ الشيوعي مستغلّة النظرة السلبية للمسلمين تجاه هذه الفلسفة، وذلك على الرغم من الهوّة التي تفصل الإسلام عن النظام السياسي والاجتماعي الغربي. أمّا في الوقت الحاضر، وبعد هزيمة الخصم الشيوعي، فقد تبنّى الغرب أسلوباً أقل خطورة، وأكثر تطوراً وخبثاً. وعلى هذا الأساس، ومنذ أنّ تسلّط الشيطان

الأكبر على منبع الخطر الأصغر، صار الإسلام يشكّل تهديداً أكبر ممّا كان عليه في السابق. في ضوء هذه المعادلة، تبدو الموجة الأخيرة لخوف الغرب ممّا يصطلح عليه بالتهديد الإسلامي أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة. وفي إطار هذه الرؤية تصبح هذه الفكرة مفهومة، وهي أنّه ما دام شبح الخوف مسيطراً كعامل مهمّ في تنظيم العلاقات بعد مرحلة الحرب الباردة، ستظلّ شرائح واسعة من المجتمع الغربي على يقين كامل بأنّ الإسلام يمثّل تهديداً حقيقياً للحضارة الغربية.

ولكن لماذا الإسلام بالذات هو الذي يمثّل تهديداً؟ وهذا سؤال بحاجة إلى تحليل جديد، وللإجابة عنه، يجب أولاً معرفة هل أن هذه الرؤية هي رؤية رجل دين مسيحي يتخوّف من الإسلام، أم أنّها رؤية حكومة سياسية تؤمن بهذا الهراء؟

وقبل الخوض في تحديد رؤية الكنيسة يجب التأكيد على أنّ الديانة المسيحية قد مرّت بتحوّلات عديدة على مدى القرون الطويلة، ولا تزال تنتظر المزيد من هذه التحوّلات في آتي الزمان، من هذه الزاوية، ربّما ينظر القساوسة المعاصرون إلى تصرّفات قساوسة القرون الوسطى بعين الاستهجان، بل قد يصل الأمر بهم إلى أن يميلوا عن تعاليم السيد المسيح وشريعته، فيُسقطوا على المسيحية سلوكاً صوفياً خالصاً كنتيجة لطبيعة العلاقة العاطفية التي تربطهم بالمسيح.

والمائز الرئيس الذي يميز الإسلام عن المسيحية هو الفهم العلمي للحقيقة التي تنصّ على أنّ أي دين جديد يستمد وجوده ومشروعيته من إلغاء الشرائع السابقة، على سبيل المثال، يدافع المسلمون عن دينهم الإسلامي باعتباره الدين العقلاني الوحيد، ويعتقدون بأنّ الكتب المقدسة للأديان التوحيدية اليهودية والمسيحية تعرّضت للتحريف بشكل واسع من قبل القائمين عليها، بينما حفظ الله تعالى القرآن الكريم من كلّ تحريف، وبالنتيجة يتساءل ممثّلو الأديان الأخرى، كيف يمكن للربّ الواحد أن يقصر رعايته على كتاب واحد وهو القرآن الكريم ويحفظه من أي تحريف بينما يسمح بتحريف سائر كتبه أي التوراة والإنجيل؟ من الواضح أنّ هذا التناقض في الرؤية لا ينمّ عن روح تعصبية، بل ينظر إليه على أنّه قصور في الوصول إلى الوثائق التاريخية.

و لهذا نرى بأن المسيحية بعد أن اتّخذت طابعاً غربياً وانحسرت رؤيتها الإدراكية، أصبحت مرفوضة من الإسلام بشكل عام، لكن هذا لا يعني أنّها خرجت من دائرة الأديان التوحيدية نهائياً من وجهة نظر الإسلام.

ولا يستطيع أحد أن يتجاهل هذه النقطة، وهي: أنّ هذا الاختلاف السطحي في الرؤى بين الديانتين أدّى إلى حدوث هذا الشرخ العظيم في الجانب التاريخي، فعلى الرغم من بعض السمات الغريبة التي تتضمّنها الظاهرة الإسلامية، إلاّ أنّ الدين الإسلامي كان أقل معارضة بالنسبة للأديان الأخرى، وقلّما تدخّل في مفهوم الأصولية، على سبيل المثال، على الرغم من تفنيد الإسلام لحقّانية الديانات الإلهية كالبوذية والهندوسية، إلاّ أنّه لم يشكّل بالنسبة لها تهديداً فكرياً قطّ.

وفاقاً لهذه النظرة، يبدو أنّ سلامة الدين الإسلامي من أي شكل من أشكال التحريف الديني، تمثّل السمة الأبرز التي تميّز الإسلام عن سائر الأديان، وهذا الأمر بالذات هو الذي شوّش صورة الإسلام لدى السياسيين.

إنّ نظرة الشك والريبة التي ينظر بها الغرب نحو الإسلام لا ترجع إلى أصوله الدينية، بل إلى قواعده السياسية التي أرعبت الغرب. فمن الناحية التاريخية واجه الإسلام عبر مسيرته الطويلة منذ عصر البعثة وحتى الآن تحدّيات كثيرة ومصاعب جمّة، وذلك عندما كانت الحكومات الإسلامية تتعرّض للقهر لدوافع سياسية، كانت تتّخذ نمطاً استبدادياً متعسّفاً، وكانت تقضي بقسوة متناهية على جميع المشاكل والمعارضات التي تقف في وجهها، حتى وإن جمعتهما وحدة العقيدة، ولا تزال الآثار القروسطية لمثل هذه التجارب ماثلة أمامنا إلى يومنا هذا.

لقد توافرت للإسلام من الناحية التاريخية ظروف نهضوية في مجال العلوم والفلسفة، أسرع العالم المتحضّر في ما بعد إلى تلقّفها ليصل إلى ما وصل إليه اليوم. لكن ما يؤسف له أنّ صعود الحكومات الإسلامية المفرطة التعصّب مثل حكومة المتوكل العباسي (٨٤٧- ٨٥١) الذي شهد عصره مطاردة محمومة لجميع الفئات المعارضة الفاعلة، دفع بالإسلام إلى متاهات التعصّب والتطرّف، فضاقت أفق الأفكار وانحسرت زوايا الآراء.

إلى ذلك كلّه، وعلى الرغم من الأدلة المستورة التي تدفع بالإسلام صوب التجاهل والنسيان، إلاّ أنّه يجب الاعتراف بأنّ ما تزخر به الثقافة الإسلامية اليوم من مفردات وصيغ تعدّ مصدراً مهمّاً بما فيه الكفاية لترويع من هم ليسوا على وفاق معه. على سبيل المثال، يعتبر الجهاد ركناً أساسياً من أركان الإسلام، وقد أثارت هذه الكلمة رعب الغرب الأمر الذي بدت آثاره واضحة في سياسته الخارجية مع العالم الإسلامي.

يؤمن المتطرفون من المسلمين إيماناً راسخاً بأنّ غير المسلمين هم أعداء الله وبالمحصلة فهم أعداء المسلمين، وانطلاقاً من هذه الرؤية، تقع عليهم (المسلمين) مسؤولية تطبيق نظرية توريث الأرض للصالحين، ما أثار حفيظة الغرب بشدّة، بنفس المقدار الذي يثيره إعلام الحركات الإسلامية من قبيل: الأخوان المسلمين وحماس وحزب الله التي ترى في معاداة الذين لا أيمان لهم جزءً لا يتجزّأ من حقّها، ومن هذه النظرية تستمد الشرعيّة في محاربة فاسدي العقيدة الذين يتصدّون لمصالح المسلمين في جميع العالم. هذه العوامل بمجموعها أثارت قلق الغرب فبات ينظر إلى الإسلام بوصفه تهديداً حقيقياً لمصالحه وأمنه.

من ناحية أخرى، ما انفكّ المسلمون الأصوليون يبدون مشاعر الفخر والاعتزاز بأبطالهم التاريخيين؛ إذ نراهم على سبيل المثال، يمتلأون زهواً وكبرياءً عندما يذكرون ذلك السفير المسلم البطل الذي دخل القصر العظيم لملك الفرس خسرو برويز وكذلك بقية السفراء الذين أرسلوا إلى ستّ أمبراطوريات في العالم، والذين كانوا يضربون بقبضتهم على الأثاث الفاخر لتلك القصور، مخيرين ملوكها بين الدخول في الإسلام وبين دفع الجزية للمسلمين، أو الحرب. من هنا، فإنّ هذه الذكريات والمشاهد تثير في الغرب مشاعر الرعب والحذر، وتزيد من يقينهم بأنّ المسلمين ينتظرون الفرصة المناسبة للانقضاض على الغرب، ليعيد التاريخ نفسه.

و ليس أدلّ على صحّة ما نقول من وقائع التاريخ الإسلامي أيام حروب العصر الوسيط، حيث كانوا يعرضون الأسيرات غير المسلمات في سوق النخاسة، عملاً بالحكم الإسلامي الذي يبيح تعدّد الزوجات، وهو الحكم الأثير لدى جميع المسلمين الذين كانوا يعيشون في مجتمع المحاربين في ذلك العصر.

و بناءً على ذلك، فإنّ الغرب الخائف يعتقد بأنّ الإسلام هو بصدد استعادة مجده التليد، وإذا ما واتت المسلمين الفرصة فلن يفرّطوا بها وسيقومون بتطبيق جميع الأحكام الإسلامية السابقة وبعثها من جديد بما فيها من كبار الآمال والطموحات.

و في الواقع إنّ محور خشية الغرب من الأحكام الإسلامية هي في فرض هذه الأحكام على الآخرين، فعملية بعث الإسلام من جديد تعيد صور الممارسات القروسطية للإسلام وترسّباتها الفكرية التي لا تزال عالقة في أذهان العالم، والمتمثّلة في إقامة الحضارة الكبرى وإخضاع الدول الأخرى.

من هذا المنطلق، فإنّ الغرب تنتابه حالة من الاضطراب وهو ينظر إلى بعض الممارسات غير الإنسانية التي تصدر عن بعض المسلمين والمستلهمة من سيرة الأجداد، حيث يعتبر تبنّيها تأسّياً بهم وتبريراً لها، وهو أسلوب مشترك جمع حوله المسلمين الأصوليين، ولهذا السبب بالذات يؤمن المسلمون بوجوب إحياء سيرة الأجداد واستنساخ نموذج السلف.

إنّ الغرب يصاب بالرعب إزاء نظرة الإطراء والتمجيد الذي ينظر بها المسلمون إلى ماضيهم الإسلامي، هذه النظرة التي كانت سبباً في تحجير المجتمعات الإسلامية بشكل كامل، خصوصاً عندما تكون نظرة الفخر هذه متسمّرة نحو الوراء فقط ومقتصرة عليه. وطالما أنّ هذه النظرة تحدّ من تقدّم المسلمين وتطوّرهم، فهي تتيح فرصة مناسبة للغرب الماكر لاستغلال الموارد الاقتصادية للمناطق المستهدفة، أو استخدامها كورقة ضغط لتهييج مشاعر العداء والخوف ضدّ الإسلام في الغرب.

من الناحية التاريخية، دأبت الإمبريالية الغربية، من خلال إخضاع معظم المساحة المسماة اليوم بالعالم الثالث لسيطرتها، على تأكيد أنّ الثقافة الغربية هي العامل الرئيس وراء تقدّم القضايا الاجتماعية في العالم، والأمر المثير بالفعل هو أنّ الحقيقة شيء آخر؛ وذلك لأنّ الأهداف الاقتصادية الإمبريالية أهمّ بكثير من مسألة الارتقاء بالواقع الاجتماعي للمجتمع العالمي، والتفسير الوحيد لاستمرار سلطة الإمبريالية وبقائها هو وجود الدهماء التُبّع والجماهير الفقيرة. وفي ظلّ هذه الفكرة يسعى الغرب إلى انتهاج سياسة إبقاء الوضع على ما هو عليه ليتمكّن من تطبيق نظرة العطف الاجتماعي في المجتمعات المختلفة. أضف إلى ذلك، يشاع عن الإمبريالية أنّها وفي أحايين كثيرة تبقي على الأبواب الرئيسة والمتاحة لتقدّم العلوم الدينية وتطوّرها في المجتمعات مغلقة. وعلى الرغم من أنّ الفضل يعود إلى الإمبريالية في تقننة أمور المجتمعات، وهي حقيقة قد لا يختلف عليها إثنان، إلاّ أنّه مع ذلك فإنّ السيناريو الحالي المعد للعالم الإسلامي يثبت عكس ذلك.

صحيح أنّ النموذج الإمبريالي القديم قد ولّى إلى غير رجعة، إلا أنّ أساليبه القديمة استمرّت حتى بعد ذهابه، من جملتها فصل الدين عن الدولة، ونهب الموارد الاقتصادية عن طريق استغلال رؤوس الأموال، نشر الأمية واستغلال بساطة المسلمين. وهي نفس السياسة المتّبعة من قبل الولايات المتحدة حالياً تجاه العالم الإسلامي باعتبارها القوة العظمى الساهرة على أمن العالم، وذلك من أجل ضمان مصالحها الحيوية. وطالما أكّدت مراراً على أنّ هذه السياسة هي ردّ فعل سياسي للعالم الغربي على الأوضاع في العالم.

إذا ما أمعنّا جيّداً في تفاصيل هذه السياسة سنستنتج أن الولايات المتحدة إمّا أنها خائفة حقّاً من الأصولية الإسلامية وإما أنّ هذه الأصولية تمثّل في الواقع تهديداً للأمن الغربي. وفي جميع الأحوال، فإنّ اللوم يقع على الولايات المتحدة باعتبارها السبب في تقوية المدّ الأصولي.

و لكن إذا تساءلنا لماذا نحت السياسة الغربية هذا المنحى؟ فالجواب هو: أنّ الغرب كان دوماً أمام اختيار أهون الشرّين، فالولايات المتحدة غير مستعدّة للتخلّي عن منابعها السياسية والاقتصادية وفي الوقت ذاته غير قادرة على السماح لأخطبوط الأصولية أن يتنامى ويتعاظم. ولكن الأمر المهم هو أنّه على الرغم من سعي الولايات المتحدة إلى الحفاظ على مصالحها، إلاّ أنّ (الأصولية) تنمو وتفرّخ باستمرار وهدوء، لهذا السبب ربّما تبدو السياسة الأمريكية تجاه الإسلام غير عقلانية إلى حدّ بعيد، على سبيل المثال، تسعى الولايات المتحدة بشكل حثيث إلى كبح جماح ما تسميه بالأصولية في بعض البلدان مثل مصر وفلسطين وتركية وإيران، لكنّها في نفس الوقت تقدّم الدعم للإسلاميين في بلدان أخرى مثل باكستان والعربية السعودية، ونفس الشيء بالنسبة لعملية نشر الديمقراطية في بعض البلدان مثل إيران وليبيا، إذ تغطّي في الجانب الآخر على حكومات قروسطية وتقدّم لها أشكال الدعم المعنوي من قبيل أنظمة الحكم الديكتاتورية في عدد من بلدان العالم الإسلامي.

لا شكّ في أنّ ازدواجية السياسة الغربية حيال الإسلام أدّت إلى استفحال خطر الأصولية، وفي هذا الصدد يعتقد عدد من المنظّرين أنّ الأصولية تعتبر عاملاً مهماً في تأمين مصالح الطرفين، أي الغرب والحكام السياسيين المسلمين، ذلك أنها توفّر للقادة السياسيين مبرّرات الاصطفاف ضدّ العدو من خلال استخدامهم الدّين كأداة، ما يجعل الأمر أكثر فائدة لهم.

من جهتها، اعتادت النخبة الغربية الاحتجاج بفكرة العداء وذلك للتأثير المستمر على مختلف الأفعال، لذا، من غير المستبعد أن يكون للغرب دور في خلق التهديد الإسلامي، حتى وإن كان الغرب يخاف هذا التهديد حقّاً. فالافتقاد إلى رؤية واقعية تجاه الموضوع هو أمر واضح للعيان، وهنا منشأ التعقيد الذي يكتنف مختلف الآراء المتعلقة بالإسلام، فمعظم المحلّلين يحاولون طرح المسائل الاجتماعية العامة وأهدافهم الخاصة بهم، وتبرز هنا هزيمة

فكرة القومية العربية لعبد الناصر وكذلك هزيمة الفكرة الإسلامية للملك فيصل كقضية تستحقّ التأمّل.

للوهلة الأولى، نرى أنّ الإسلام يتوافر على عناصر إيجابية كثيرة، في حين يتمّ التشبّث في بعض الحالات ببعض المسائل الخلافية غير القابلة للجمع. هناك فرق مختلفة تحمل أفكاراً خاصة بها مثل الفرقة الوهابية والديوبندية والبريلوية والإسماعيلية، ويمكن لهذه الفرق بإشارة واحدة أن تغيّر وجهتها من دينية إلى سياسية.

من الناحية النظرية، فإنّ المنظّرين المتطرّفين عملوا على طمس دور العقائد الإسلامية، هؤلاء الذين قلّما يسمحون للفكر الحر بالتعبير عن نفسه عند احتدام الصراع بين الأفكار والآراء، حتى في الحالات التي لا تتعلّق بالقضايا الدينية، وحينما تصطرع الرؤى وتتعارض، يقومون بتهديد المسائل الجوهرية لقطاع عريض من الفريق المعارض للأفكار الإسلامية.

و يبدو أنّ المنظّرين الدينيين المعاصرين وبسبب الخشية من عواقب الآراء والأفكار الإصلاحية للآخرين، لم يتّعظوا بعد من سيرة عظماء الفلاسفة المسلمين من أمثال ابن سينا والفارابي والرازي والكندي والخوارزمي، وبسبب هذه الثغرات وقعت العقلية الإسلامية في مستنقع التعصبات العقائدية والعملية، وسقطت في الهوّة العميقة التي تفصل بين النظرية والتطبيق.

لذا، فلا عجب إذا رأينا التناقض الساحق الذي كانت تعيشه الجماعات الدينية الأفغانية بين النظرية والتطبيق، وبالتالي فإنّ عدم النضج السياسي والتنافر السياسي قد هيّأ الأجواء المناسبة للاقتتال، وهذه العوامل عادة ما تكشف عن نفسها في مواطن الضعف. وإذا كان رجال الدين (الأصفياء) والزعماء الأصوليون الأفغان قد عجزوا عن قيادة بلادهم إلى برّ الأمان والسلام، فأنّى لهم بناء اقتصاد قوي لمجاراة القوى الاقتصادية والثقافية الكبرى.

من هذا المنطلق، فإنّه ما دام الأصوليون الأفغان هم الأكثر اقتداراً واعتباراً بين الجماعات الأصولية، فسيشكّل النموذج الأصولي الأفغاني المحكّ والمعيار لتقييم بقية التيارات الأصولية.

و إذا ما نظرنا إلى هذه المسيرة، لا شك أنّ المشهد السياسي الأصولي سيبدو قاتماً

ومحزناً، على الرغم من أنّ تعويلهم بالضغط في نقطة معينة يبدو غير معقول. لهذا، وفي ضوء الحقائق الموجودة في بؤرة التهديد هذه، يمكن تفسير قراءة بعض المنظّرين الغربيين من أمثال صاموئيل هنتنغتون للوضع وتصنيفه ضمن ما يسمّى بـ«صدام الحضارات».

وعلى العموم، فإنّ نظرة الريبة التي ينظر بها الغرب إلى الإسلام في صراع الحضارات قد تفقد أساسها في المستقبل، لأنّه وكما يبدو فإنّ القرن الجديد يتجه نحو «صدام الاقتصاديات» وبعيداً عن الرؤية الدينية، هذه الاقتصاديات من قبيل ألمانيا واليابان تتعاظم في كل زاوية من زوايا العالم وبضمنها العالم الإسلامي، لذا، سيكون من الأحرى للغرب عند ذاك أن يكفّ عن الخشية من الإسلام.